محاضرة04:

مفهوم النثر في التراث النقدي

01ـ مفهوم النثر:

أ ـ لغة: النثر مصدر للفعل نَثرَ بمعنى فرّق فيقال: نثر اللؤلؤ وقد انتثر وتناثر. والنقط نِثار ونثارته وهو الفتات المتناثر حوله. ورأيته يتناثر الدُّر إذ حاور بكلام. ومنه فالنثر فتات الشيء وشتاته الذي تفرق.

ب ـ اصطلاحا: هو الكلام الذي لم يُنظم في أوزان وقواف، وهو على ضربين:

الضرب الأول: وهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلاّ ما يجري فيه من أمثال و حكم.

الضرب الثاني: وهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن و مهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يُعنى النقاد ببحثه ودراسته، وبيان ما مرّ به من أحداث و أطوار، وما يمتاز به في كلّ طور من صفات و خصائص، ويتفرع إلى الخطابة و الكتابة الفنية التي يسمّيها بعض الباحثين باسم النثر الفنّي وهي تشمل القصص، والرسائل الأدبية، و الكتابة التاريخية المنمّقة.

02ـ مفهوم النثر عند النقاد القدامى:

النثر هو الكلام المطلق من دون قيد، لخلاف ماهو عليه حال الشعر أو النظم من حيث أنه مقيّد بالوزن والقافية وهو ماعبر عنه ابن وهب بقوله: الشعر محصور بالوزن، محصور بالقافية فالكلام يضيق على صاحبه، والنثر مطلق غير محصور. فهو يتّسع لقائله فالشعر إذا مقيّد بالوزن والقافية أمّا النثر فهو ذلك الكلام المطلق غير المقيّد لهما معا. وقد وردت في هذا الباب مصطلحات أخرى عند النقاد منها : الكلام، و الكتابة.

ويطلق النثر في مقابل الشعر ويجمع بينهما مصطلح الأدب الذي هو لفظ عام يطلق على النثر والشعر. ويُسمَّى النثر **كلاما** من ذلك أنّ " بشر بن المعتمر" في صحيفته البلاغية التي رواها له " الجاحظ" يسمّي النثر بصناعة الكلام. ويستعمل ابن المعتز في كتاب البديع مصطلح " الكلام البديع" في مقابل " الشعر البديع". ويجعل " الآمدي" الكلام مقابلا للشعر فيقول:"ومثل هذا في الشعر والكلام كثير مستعمل". في حين رأى نقاد آخرون بأن الكلام أشمل وأعمّ، وينطوي تحته كلّ من الشعر والنثر. فقد جاء في كتاب الوساطة للجرجاني قوله: " كذلك الكلام: منظوم ومنثور"، وقال مسكويه:"إن النظم والنثر نوعان قسيمان تحت الكلام" وفي ذلك مايدل على أن الكلام أشمل من النثر في مفهوم هذين الناقدين، وارتبط النثر بالكتابة عند فئة أخرى من النقاد القدامى فقد سمّى "أبو هلال العسكري" كتابه بالصناعتين الكتابة و الشعر، وعنون " ابن الأثير" كتابه بالمثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر.

وكما تحدّث النقاد عن الشعر وضروبه، وخصائصه، وموضوعاته، و أعلامه تحدثوا في النثر أيضا فذكره الجاحظ في " البيان و التبيين" ، والمبرد في " الكامل"، و ابن وهب في " البرهان في وجوه البيان" ، والحاتمي في "حلية المحاضرة" و الباقلاني في " إعجاز القرآن"، و المرزوقي في "شرح ديوان الحماسة"، و الحصري القيرواني في "زهر الآداب و ثمر الألباب"، وابن رشيق في " العمدة". وابن عبد الغفور الكلاعي في " إحكام صنعة الكلام" وتعدّ نظرة ابن عبد الغفور هامة في تاريخ النثر العربي، فقد تناول النثر، و أنواعه، وفصّل في خصائص كل ضرب منها بالقواعد و الأمثلة. وقد قسم كتابه إلى بابين : الباب الأول في الكتابة و آدابها. و الباب الثاني في ضروب الكلام.

ويقول في بداية حديثه عن ضروب الكلام : "وتأمّلت ـ أدام الله توفيقك ـ النثر فوجدت فيه من أنواع البديع ما في النظم، فأغفلت ذكرها في هذا الكتاب لأنّ كثيرا من العلماء قد عُنوا بهذا الباب، وجعلت أبحث عن ضروب الكلام فوجدتها على فصول و أقسام منها: الترسيل،

ومنها التوقيع، ومنها الخطبة، ومنها الحكم المرتجلة، و الأمثال المرسلة، ومنها المُورّى و المُعمّى، ومنها المقامات و الحكايات، ومنها التوثيق، ومنها التأليف".

و على الرغم من أنّ النقاد القدامى لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية ـ فلسنا نجد في كتب النقد تلك الأبحاث المطولة في النثر على نحو ما فعلوا في درس معاني الشعر ـ إلاّ أنّهم اهتموا بالبحث في فنون النثر، و أكثروا من الاستشهاد في كتبهم ببليغ ألوانه، و إن كان جلّ اهتمامهم منصبّا على إثبات شرفه، ومكانته، ومقارنته بالشعر، أو دراسة ما يحمله من قيم ومعانٍ، ولا نعدم وجود الكثير من المحاولات التي هدف أصحابها إلى وضع بعض الضوابط التي تقوّم فنونه، أو إسداء النصائح و التوجيهات التي تعين على معالجته.

وليس في اللغة العربية كتاب منثور شُغل به النقاد كالقرآن الكريم، على أنّ شغل النقاد بالقرآن لم يكن عملا فنّيا بالمعنى الصحيح للنقد الأدبي. و إذا تركنا القرآن جانبًا و انتقلنا إلى نصوص، و كتب النثر وجدناها قليلة الحظ من عناية النقاد فساحة النقد مثلا تحتوي عددا لابأس به من مؤلفات تدور حول البحتري و أبي تمّام، ومسلم بن الوليد و أبي نواس، و بشار و المتنبي، ولكن قلّ أن نجد أثرًا لمثل هذه المؤلفات في الموازنة بين كاتبين كالبديع و الخوارزمي ، أو الصاحب و الصابي، أو عبد الحميد و ابن المقفع، أو الصولي و ابن الزيات. ولكن قلة هذا النوع من المؤلفات لا يعني قلة اهتمام العرب بالنثر، والفنون النثرية. فقد عُرف عندهم توظيف المثل في مختلف مناسبات الحياة، واطمأنّ الدارسون إلى ما نُسب منه إلى العصر الجاهلي، وبلغت الخطابة في الجاهلية درجة من الرّقي و الازدهار، ومثل هذا الوصايا التي وصلتنا منها بعض النماذج. و اتّضح الاهتمام بفنون النثر المختلفة في عصر صدر الأسلام من خُطب و أمثال و وصايا، ورسائل حيث أصبحت وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية. وما نكاد نصل عصر بني أميّة حتى يتضح أثر القرآن و الحديث في أساليبه، و موضوعاته، ومعانيه. وتشتدّ الحاجة إلى الخطابة و يزداد الاهتمام بالرسائل، ثم

تساعد البيئة العباسية في ازدهار ألوان أخرى من النثر كالمقامات الأدبية. وقد اهتمّ النقاد بمختلف فنون النثر و انقسموا في ذلك قسمين:

01 ـ التأليف في نقد النثر و الاهتمام باستخراج ضوابطه المختلفة: فمن النقاد من اهتمّ بالخطابة و الخطباء، يعلّمهم أساليبها و طرق إجادتها، ومنهم من اهتمّ بالكتابة و الكتّاب. وتزويدهم بالثروة اللغوية التي يحتاجون إليها. ومنهم من يهتم بالرسائل و أنواعها و أغراضها. ومنهم من اهتمّ بدراسة المقامات و الوقوف على أسرار روعتها.

02 ـ الاهتمام بالمفاضلة بين الشعر و النثر: وهو اتّجاه سلكه عدد من النقاد الذين تناولوا النثر من زاوية البحث في الأفضلية و المزية لكل من النثر و الشعر، فعقدوا المقارنات، وبحثوا في الخصائص، و الأساليب.